الفصل الثالث

الشيعة والسُنَّة في العراق

محطات التنافر والتقارب

تعايشت الطائفتان (الشيعية والسُنّية) في ظل الدولة العراقية الحديثة، التي تشكلت في بداية العشرينات من القرن الماضي، بسلام ووئام، يتشاركون الأعمال الحرة والتجارة، يتزاوجون من بعض، يتفاعلون بصداقات حميمية، دون حساسية أو شعور بالغرابة من بعضهم البعض، خاصة في المدن الكبرى حيث يتواجد أبناء الطائفتين، بأحجام متساوية تقريبًا مثل بغداد، بعقوبة مثلاً، تكاد لا تخلو مدينة شيعية من تواجد عوائل سنية ولو بأعداد قليلة، لكنهم كانوا مندمجين بأوساطهم المحلية لا شيء يفرقهم عن بقية السكان.

لم يحصل في تاريخ الدولة العراقية الحديثة أن قُتل شيعي أو سني بسبب انتماءه الطائفي، حتى عام ١٩٧٧، في زمن البعث حيث قاد وزير الداخلية العراقي في حينها عزة الدوري مجزرة بحق الشيعة، فقط لأنهم شيعة، لا لذنب أو تهمة سياسية أو إخلال بالقانون من أي نوع من هذه التهم، كما سيأتي الحديث عنه ذلك بالتفصيل في الفصل الخامس.

مهما اشتد أو تصاعد الحديث عن الطائفية، والتقسيم والانقسام في العراق؛ هناك آصرتان عضويتان تربطان شيعة وسُنَّة العراق، من القوة إلى حد القول بالاستحالة في فكهما أو تذويبهما، هما:

الأولى: تتوزع العشائر العربية في العراق بين المذهبين، فالظاهرة العامة أن أغلب أفخاذ هذه العشائر في مناطق شمال وشمال غرب بغداد تنتمي للطائفة السُنّية، في حين نرى أن أفخاذ أو امتدادات نفس العشيرة في مدن جنوب بغداد

تنتمي للطائفة الشيعية، فشمر جنوب بغداد تكاد تكون بالمطلق شيعية، وشمر شمال بغداد سنية، عشائر آل فتلة في المشخاب وعفك، وهم من أنشط العشائر الشيعية في المشاركة بالانتفاضات الوطنية كثورة العشرين، وتمرد ١٩٣٦ الذي فرض على الملك تكليف ياسين الهاشمي (السني) برئاسة الوزارة، ينتمون نسبًا لتحالف عشائر دليم السُنّية. آل بو علوان في الحلة شيعة وهم أبناء عمومة أو نفس عشيرة آل بو علوان السُنّية في الرمادي/ الأنبار، آل بو ريشة الشيعة في قضاء الخضر/ السماوة هم فخذ من عشيرة آل بو ريشة السُنّية في الأنبار. الفضول السُنَّة في تجمع عشائر كبيسة هم فخذ من عشائر آل غزي الشيعية في البطحة / الناصرية، كذلك الحال بالنسبة لبقية العشائر مثل الجبور، زبيد، عبودة، حتى عوائل السادة المنتسبين لآل البيت تخضع لنفس التقسيم فكل من سادة الوس، راوة، سامراء، نعيم هم من السُنَّة الأحناف في حين أن كل عوائل السادة في الجنوب هم من الشيعة.. حتى الآن هناك الكثير من البيوت في عنه وحديثة من الشيعة – العلوية، وهكذا جميع العشائر والبيوت التي أعتذر عن عدم ذكرها والتي لا يستحضرني اسمها.

الثانية: تتشابه معتقدات سُنة العراق مع شيعته في تكريم كل منهما لأوليائه، يبني لهم القبور، والمساجد ويزورنها للتشفع بهؤلاء الأولياء إلى الله وتقديم النذور لهم، لنأخذ بغداد مثلاً، عبر نهر دجلة حيث يقع مرقد الإمامين الجوادين أو الكاظمين في مدينة الكاظمية، يقابلهما على مسافة لا تتجاوز الثلاث كيلومترات، مرقد وجامع الإمام أبو حنيفة في الأعظمية، ثم على بعد بضع كيلو مترات في وسط مدينة بغداد يقع مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني.

هناك مراقد أو أولياء يمكن القول إنهما يمثلان بؤر مشتركة ويحظيان بنفس المستوى من القدسية عند الشيعة والسُنَّة، مثل مرقد السيد محمد بن الإمام علي الهادي في مدينة بلد الشيعية، يحظى بنفس مستوى التقديس عند أهل مدينة الضلوعية وقراها السُنّية، فالسيد محمد هو الحكم الفصل في النزاعات

والخلافات الفردية والجماعية عندهم، يكفي القسم في حضرته لتأكيد صحة أو كذب المدعي أو المدعى عليه.

يحظى مرقد الإمامين العسكريين في سامراء بنفس القدر من الاحترام والتقدير، يعتقد أهالي سامراء بأنهم من عوائل السادة التي تنتسب للإماميين، في مدينة الرفاعي الشيعية ترتفع منارات مرقد الشيخ أحمد الرفاعي، لا يجد زواره من مختلف مناطق العراق أي مشقة أو موانع من أهل المدينة في أداء شعائرهم، عندما يقصدونه طلبًا للشفاعة أو لإيفاء نذر.

المعروف أيضًا أن مدينة الفلوجة تضم مراقد ومساجد عديدة لأوليائها، لعله من الصعب أن تجد مسافة ١٠٠ كيلو متر في العراق في مناطق الشيعة أو السُنَّة تخلو من مراقد أولياء تختص بهذه الطائفة أو تلك.. هنالك أثر لقدم على صخرة في مدينة حديثة يعتقد سكان المنطقة أنه يعود للإمام علي أثناء مروره بالمنطقة في حرب صفين، يزورون الصخرة للتبرك والتشفع إلى الله بالإمام علي.

يعني بلغة داعش والوهابية وابن تيمية أن كلا الطائفتين يحسبان بحسابات الشرك والكفر، ومراقدهما مهددة بالهدم، كما هدموا جامع النبي يونس الذي يحظى بتقدير واحترام عموم أهل الموصل وهم من السنة.

حتى الموقف من إيران يكاد يكون واحد أو بنفس المستوى من النفور تقريبًا عند الطرفين إلى حد الاحتلال في ٢٠٠٣، نفور مصدره توجهات ذات مضمون قومي، فالقول الشائع مثلاً في مدن الجنوب وإلى عهد قريب (خذ من العجمي ولا تعطيه) أي تزوج منه ولا تزوجه، كما لازال العراقيون من أصول إيرانية ينعتون العربي بـــ"المعيدي" أي المتخلف من سكان الأهوار.

من المشاهد التي لاحظها الكاتب كان هناك وجيه في أحد مدن الجنوب متزوج من امرأتين؛ إحداهما عربية الأصل والأخرى إيرانية أو عجمية (كما هو الاسم الدارج للإيرانيين)، له أولاد من كِلا الزوجتين، عندما يختص حديث أهل

المدينة عن أولاد هذا الوجيه، يعرف أبناء العربية باسم أبيهم، بينما يعرف أولاده من زوجته الإيرانية باسم ابن العجمية، وهكذا هناك الكثير من المظاهر ذات الدلالة على النفور من الإيرانيين عند الشيعة العرب، إلا أن ذلك لا يمنعهم من تقليد المرجع الإيراني الأصل، رغم شعورهم بالغصة في أن لا يكون هؤلاء من العرب، كما سنأتي للحديث عن ذلك.

ساد العراق ما قبل الاحتلال، نفس المستوى من التواءم والتعايش الذي كان يسود علاقات المسلمين فيما بينهم، علاقاتهم مع بقية الجماعات الدينية التي تسكن في العراق (المسيحيين، اليهود، الصابئة أو غيرهم).

كنت أتحدث بالأمس مع صديق من الناصرية وهو من أبناء الطائفة السُنّية، حول الطائفية، قال أي طائفية: في كل عشرة عاشوراء في الناصرية كان الصابئة يدعمون مواكب التطبير واللطم بإرسال الخرفان وأكياس الأرز، وحدادينهم يصنعون سيوف التطبير، وخضوري اليهودي كان يخيط أكفان المطبرين، الذين ما أن ينتهوا يفضلون الذهاب إلى جامع السُنَّة للاستحمام هناك لوجود حمامات تابعة للجامع، وللاستطباب. يشارك بعض الشباب السُنَّة في عملية التشكيف (أي أنهم يحملون جرائد النخل ويسيروا وراء من يغرم بالتطبير ليضعوا العصا بين رأسه والسيف كي لا يؤذي نفسه).

ذكرني بقصة صديق من أيام الدراسة في ثانوية الناصرية تشكلت صداقتنا في صيف ١٩٦٣، كان هو من أعضاء الحزب الشيوعي العراقي، وكنت مرتبطًا بالتيار القومي خط الشهيد فؤاد الركابي، حتى بعد انتقالي إلى بغداد كان يزورني، وعندما أذهب في أيام العطل إلى الناصرية كنا لا نفترق إلا قليلاً، رأيته مرة يمارس عملية التشكيف في موكب للتطبير، لم أفكر ولا خطر ببالي يومًا أن أسأله عن طائفته، لكن البديهة تقول كونه من أبناء مدينة الناصرية فهو شيعي. اكتشفت بالصدفة عام ٢٠٠٦ أي بعد ٤٣ سنة، أنه سني. كانت موضوعات أحاديثنا في فترة الشباب تتمحور حول أخر الكتب، ومسرحيات

توفيق الحكيم وقصص يوسف السباعي، سارتر وسيمون دوبفوار، ماركس ولينين، وجمال عبد الناصر، أخر الأفلام وما تعنيه أو ما أراد كاتب قصته والمخرج أن يقول وغيرها من موضوعات الأدب والسياسة والتاريخ وقصص وحكايات الشباب.

بالعودة إلى الحديث عن الطائفية في العراق عمومًا، لا يمكن القبول بالقول الذي يردده الطائفيين اليوم، في أن بناء الدولة العراقية قام على أُسس طائفية، تُلقي وجهات النظر هذه اللوم تارة على سلطة الاحتلال البريطانية، ومرة على النخب الطائفية السُنّية التي شاركت في المراحل الأولى من تشكيل الدولة[1].

لا شك أن لا المعتمد البريطاني السير برسي كوكس المكلف بإدارة الشأن العراقي، ولا سكرتيرته المس بل، كانوا من المعنيين بمن هو أحق بالخلافة علي أو الشيخين، كما لا تعنيهم ما إذا كان الأفضل أو الأصح إسبال أو تكتف اليدين عند الصلاة، هم معنيين بتحقيق المصلحة الوطنية البريطانية بحدود تعلقها باحتلال العراق، ومن هو مستعد من العراقيين للتعاون معهم في سبيل ترسيخ الهيمنة البريطانية، والحفاظ على مصالح بلادهم سيقربونه ويخصونه بامتيازاتهم. سافر رونالد ستورز من مكتب العربي في القاهرة مع المس بل سكرتيرة دار الاعتماد البريطاني إلى النجف، للقاء مجتهدي الشيعة والمرجع الشيعي كاظم اليزدي، طالبًا منه التعاون في إدارة العراق، إلا أن اليزدي كان يفضل التعاون السري غير المعلن بالبريطانيين[2]، بالمقابل كان اليزدي يواجه

١- لاحظ على سبيل المثال:

- عبد الكريم الازري، مشكلة الحكم في العراق، لندن: بلا دار نشر، ١٩٩١.

- د. سعيد السامرائي، الطائفية في العراق، لندن: مؤسسة الفجر، ١٩٩٣.

- حامد البياتي، شيعة العراق بين الطائفية والشبهات، لندن: دار رافد للنشر، ١٩٩٧.

٢- عن طبيعة علاقة اليزدي بالانجليز، وما كشفته المس بل في مذكراتها عن هذه العلاقة، راجع: د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الرابع، لندن دار كوفان، ١٩٩٢، ٣٦٥.

طلبات المشورة التي يطلبها منه زعماء العشائر بالامتناع عن إبداء أي رأي بحجة أنه لا يفهم في السياسة[1]، لجأت سلطات الاحتلال البريطاني لعبد الرحمن النقيب الذي بعد ما كان يتردد وافق على التعاون المكشوف، لذلك كلفه بتشكيل أول وزارة تابعة لدار الاعتماد البريطاني.

طرح الباحث العراقي علي الوردي تساؤلاً عن كيفية إقناع النقيب على هذا التعاون المكشوف بعدما كان مترددًا ، ووضع احتمال أن يكون كوكس قد ضرب على الأوتار الطائفية الحساسة في قلب النقيب ، فوافق على التعاون المكشوف[2] ، اتخذ الشعوبيون المكلفون بمهمة الترويج لسياسة التقسيم والتحريض الطائفي ، من احتمالية أو فرضية الوردي على أنها وثيقة تكشف مؤامرة سنية بقيادة النقيب – بريطانية بقيادة كوكس لإبعاد الشيعة عن الحكم.

كما أنه ليس من الصعب القول إن النخب العراقية التي كانت بالأصل مجموعة من الضباط العراقيين ممن كان يخدم في الجيش العثماني ثم تركوا خدمتهم هذه والتحقوا بالشريف حسين وابنه فيصل ، كانوا جميعًا من العلمانيين ، أو غير المتدينين ، لا يعرف عن أي منهم ولم يظهر أنهم متمسكين بسلوك إسلامي ، أو ممن يلتزم بأداء الفروض الإسلامية ، أما كونهم جميعًا من السُنَّة ليست جريرتهم بل كانت هذه الظاهرة من نتائج التمييز التي اعتمدتها الحكومات العثمانية ضد الشيعة بحرمانهم من الاستخدام أو العمل في وظائف الدولة[3].

د. وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤، ص: ٣٣٨ وما بعدها.

١- عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، بلا تاريخ، ص: ٧٣.

٢- د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، الجزء السادس، ص:٢٢.

٣ – نفس المصدر.

الملك فيصل كان خيارًا شيعيًا، طالب به شيوخهم لتولي عرش العراق باعتباره من آل البيت، أو السادة الأشراف، وهو الآخر لم يبدُ منه ما يُوحي أنه كان ممن يعطي الكثير من الأهمية لأمور الدين، بشكل أو آخر. كان يريد أو يتطلع لتعاون الشيعة معه لتشكيل وزارته الأولى ليمنع الإنجليز من فرض عبد الرحمن النقيب عليه، أرسل الشيخ عبد الواحد سكر إلى النجف بمهمة إقناع مراجع الشيعة ووجهائهم للتعاون معه في تشكيل الوزارة، فكان ردهم بالرفض، حتى أن الشيخ عبد الواحد لم يُرجع الجواب للملك بل عاد إلى موطن سكناه دون أن ينقل الجواب، خجلاً من الملك[1].

كان الملك فيصل لا يرغب بالعمل مع عبد الرحمن النقيب، الذي أبدى خضوعًا كليًا للإنجليز، ما يثير مخاوف الملك فيصل من أن يفرضونه عليه، ما هي الخيارات أمام الملك فيصل، مراجع الشيعة يرفضون التعاون أو ترشيح من يرغبون للوزارة، والإنجليز يضغطون لإعادة تكليف عبد الرحمن النقيب لرئاسة الوزارة.

الحل الوحيد أمامه هو أن يجلس جانبًا في زاوية إحدى التكايا أو الجوامع بانتظار خروج المهدي ليشكل دولته تحت رايته، المشكلة ألا أحد من مجتهدي الشيعة يستطيع أن يحدد موعد مضبوط لخروج المهدي، حتى الخميني نفسه تعب من هذا الانتظار الممل فطرح نفسه نائبًا بالوكالة عن الإمام الغائب[2]، كان الانتظار مقبولاً في زمن الدولة العثمانية السكونية التي تعيش خارج التاريخ والزمن، هناك الآن أمر واقع قوات الإنجليز دخلت العراق، وهم كفار لا يؤمنوا بنظرية المهدي المنتظر، غير مستعدين للانتظار، يبحثون عن من يتعاون معهم لديهم خيارات وخطط جاهزة لتأكيد هيمنتهم وتحقيق مصالحهم في العراق.

١- نفس المصدر، الجزء الثالث، ص:٢٦٢-٢٦٣.

٢- نفس المصدر، ص: ١٢٢.

أضعف موقف مجتهدي الشيعة هذا الملك فيصل المتطلع للتخلص من الهيمنة البريطانية، لا يمتلك والحالة هذه إلا الخضوع لمطالب وشروط نخبة الضباط، لا يمكن القبول باتهام هؤلاء الضباط بالطائفية، مادام اتهام بعض مروجي الطائفية ينصب على عبد الرحمن النقيب، فالضباط كانوا مشمولين ببغض وكره عبد الرحمن النقيب كما هم الشيعة، لأنه يعتقد أن هؤلاء الضباط لا ينتمون لأصول عائلية محتدة النسب بل لعوائل بسيطة، أي أنه لا يمكن القول إنه حرضهم أو اتفق معهم، كما كان هؤلاء الضباط من المغضوب عليهم بريطانيًا وممنوعين من دخول العراق، لأن بينهم من يحمل أفكار قومية عربية مثل ياسين الهاشمي وأنصاره، ومن يحمل توجهات عراقية استقلالية غير مرغوبة من قبل الاحتلال البريطاني[1]، اضطر المعتمد البريطاني السماح لهم بالعودة للعراق، لقلة الكادر أو النخب المتعاونة بعد انعزال الشيعة.

كان هؤلاء الضباط مختلفين في ولاءاتهم واتجاهاتهم السياسية، بين القومي العربي الذي يتطلع لأن يجعل من العراق قاعدة قومية عربية لمناصرة ودعم القضايا العربية مثل ياسين الهاشمي ومجموعة النخب من المدنيين كرشيد عالي وساطع الحصري وأنصارهم من عرب العراق من الشيعة والسُنَّة ، البعض الآخر منهم من يؤيد الهيمنة البريطانية على العراق كنوري السعيد وأعوانه، بينهم تقف مجموعات ممن ترفع شعار العراق للعراقيين.

توزعت معهم ولاءات شيوخ العشائر الشيعية دون حسابات طائفية، شكل العروبيون منهم ما عرف فيما بعد بجماعة أو حزب صليخ متابعة الأحداث، والنظر لها من زاوية موضوعية محايدة، تكشف أن طائفية الحكومات العراقية كانت إرادة أو نتاج لمواقف مجتهدي الشيعة منها، هم أرادوها، أو فرضوا عليها أن تكون كذلك.

١- حول مواقف الضباط العراقيين من الحكم في العراق، ومواقف بريطانيا تجاههم لاحظ: وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص: ١٥٧-١٦٩.

رغم تبرير مراجع الشيعة لموقفهم في مقاطعة الدولة العراقية الناشئة على أنه التزام بمبدأ يقول: إن أي دولة لا يحكمها إمام هي دولة لا شرعية، لا يجوز العمل بوظائفها المختلفة أو التعاون معها، وأنهم بانتظار الإمام الغائب، المهدي المنتظر لينضوا تحت لواء دولته، لذلك حرموا العمل بالوظائف أو إرسال الأطفال للمدارس في الدولة العراقية الوليدة، رغم أنهم كما قلنا هم من اختار الملك فيصل كملك عربي من آل البيت[1].

يمكن أن نُرجع موقف المجتهدين هذا إلى حقيقة أن أغلبهم كان من أصول إيرانية، محكومين بالخوف من أن تشاركهم أي قوة أخرى في ولاء شيعتهم، ما يُضعف من هيمنتهم على أتباعهم، يشكل هؤلاء الأتباع موردًا رئيسيًا من مواردهم المالية، وأرضية لمواقعهم الاجتماعية، لذلك فهم يتحذلقون في اجتهاداتهم لعزل الشيعة من دولتهم وعن بقية عرب العراق، ما يضمن لهم قوة الهيمنة والسيطرة على الطائفة، يريدون أن يعيشوا حياتهم بهدوء وسلام نفسي تحت ضغوطات النزعات الإنسانية التي فطرهم الله عليها، لا أحد منهم يضمن الجنة لنفسه، لماذا إذًا يتحمل آلام الحرمانات من لذات الدنيا بحورياتها وجناتها ، ما دامت الحوريات الأصل فوق على الشجرة بالسماء.

من يستطيع أن ينفي صحة المثل القائل "إن عصفور أو حورية باليد خير من ألف عصفور في الشجرة أو حورية تنتظر في السماء"، إن الدين والمذهب هما أرحب أرض خيرة ليصبح العصفور باليد ألف عصفور، بشرط تعمية أو وضع الحجاب على عيون المغيبة عقولهم من التابعين، لمنعها وإبطال حسدها لهم، ليستفرد المجتهد أو الفقيه بحيازة العصافير والحوريات، إن الحسد وسوسة من وساوس الشيطان، الذي يوسوس لبعض الكفار أن يرفعوا الحجب عن أعينهم،

١- د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، الجزء الثالث، ص:٢٦٤.

كما أغرى من قبلهم أبونا آدم وأمنا حواء ليضحوا بالجنة مقابل تفاحة؛ قضمة من تفاحة تافهة، ألا لعنة الله على الشيطان الرجيم!

اكتشف مراجع وفقهاء الشيعة الذين هاجروا من العراق استنكارًا لإبعاد الشيخ مهدي الخالصي من قبل رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون؛ أنهم في بلدهم إيران يعيشون على هامش الحياة، محرومين من امتيازات الجاه والمال التي تمتعوا بها في العراق، عادوا هم أنفسهم يتوسطون لكسب رضى السعدون بالسماح لهم بالعودة لجنات النعيم، التي حرموا منها بعودتهم إلى بلدهم الأم، وافقوا على كل شروط السعدون بألا يتدخلوا في السياسة وأن تنحصر نشاطاتهم بالأمور الدينية[1]، لذلك تتجه سياساتهم إلى فرض الهوية الشيعية كبديل عن هوية المواطنة العراقية من خلال عزل المواطن العربي الشيعي عن بيئته العراقية ودولته.

كما كانوا لنفس السبب يتسقطون دائمًا اجتهادات الفقهاء العرب من عراقيين وغيرهم، تلك التي لا تتماشى مع خرافاتهم وأساطيرهم، ليعلنوها حربًا على هذا المجتهد أو ذاك خوفًا من أن يتمسك بمواطنته العراقية التي ستعزلهم وتحرمهم من عصافير جنة العراق، كما حصل مع الشيخ محمد الخالصي صاحب مشروع التقريب بين المذاهب، والداعي للوحدة الإسلامية، والسيد محمد صادق الصدر، والسيد محمد حسين فضل الله كما سنأتي للحديث بالتفصيل في الفصل القادم.

لا تحالف سني أو تجمع سني قرر أو صمم أن يكون الحكم في المملكة العراقية سنيًا ويهمش الشيعة، ولا مؤامرة بريطانية، بل هم مراجع الشيعة أنفسهم من عمل على تصميم وتصنيع الدولة بهذا الشكل.

١- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، بلا دار نشر، ط٧، ١٩٨٨، ص:١٧٥-١٧٧.

عندما طرح الإنجليز فكرة الإقرار بمعاهدة تنظم علاقة الدولة العراقية الناشئة، التي يجب أن تخضع لاستفتاء شعبي من خلال انتخاب مجلس تأسيسي عراقي يوافق على المعاهدة لإضفاء الشرعية عليها، ولإقرار دستور جديد للدولة.

انبرى الشيخ مهدي الخالصي وتبعه بقية المجتهدين ورجال الدين في النجف، ليدعوا لمقاطعة انتخابات المجلس التأسيسي، نشروا الفتاوى مشددين على ضرورة تحقيق الاستقلال التام، حلم يبدو طوباوي في وقتها، فالإنجليز لم يأتوا ويقدموا الضحايا من أجل أن يخرجوا بسهولة من أجل عيون الشيعة وشيوخهم، إن خروجهم من العراق يحتاج لثورة جديدة غير مضمونة النجاح والنتائج، كسابقتها، فالبريطانيون جاؤوا بخبرات ومعارف وتجارب عسكرية استعمارية تمكنهم من القدرة على التغلب على مثل هكذا توجهات، بمواجهة شعب بنخب سياسية كانت حتى سنوات قليلة تعاني من اضطهاد دولة مهيمنة، هي أصلاً محكومة بعائلة من مخلفات القرون الوسطى.

كان هناك نموذج من الصراع والتنازع بين أحلام أقرب للطوبائية، وسياسة الممكن، لم ينتهِ إلا بقرار رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون (أول رئيس وزارة تشكل بأمرة الملك فيصل) بإبعاد الخالصي ومجموعة من أبناءه وأقاربه إلى إيران.

يبدو أن شيوخ العشائر الشيعية، رغم تقديرهم واحترامهم بمراجعهم إلا أنهم غير مقتنعين بمواقفهم الأخيرة، لذلك لم يتحرك أحد منهم لاستنكار هذا الإبعاد أو الحيف الذي وقع على الخالصي، ما شجع السعدون على أن يبعد٣٤ من رجال الدين من أصول إيرانية، ليمضي بعملية انتخاب المجلس التأسيسي، وإقرار المعاهدة العراقية – البريطانية.

حصلت حادثتين أخريين يضفي عليهما مروجي الطائفية من الشعوبيين أهمية كبرى للدلالة على طائفية الحكومات العراقية، الملام بهما هذه المرة ساطع الحصري.

ساطع الحصري كان واحدًا من المثقفين العرب الذي أظهر قدرات فكرية مميزة في الدولة العثمانية، اشتغل لخمس سنوات مدرسًا في المدارس الثانوية، ثم تعين قائمقام لمدة ٣ سنوات قبل أن ينتقل إلى اسطنبول مديرًا لدار المعلمين العالية، له عدة مؤلفات، كما أصدر في اسطنبول مجلة التربية، لسنوات عدة أثبت من خلال ما ينشره من نظريات تربوية؛ خبرات مميزة ونظريات جديدة في التربية والتعليم، بقي في منصبه هذا حتى قيام الثورة العربية الكبرى، وانفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية، التحق بالأمير فيصل (ملك العراق فيما بعد) الذي عينه وزيرًا للمعارف (الاسم المستخدم حينها لوزارة التربية والتعليم) في المملكة العربية التي شكلها الملك فيصل في الشام عام ١٩١٨، استمرت سنتين إلى حين إسقاطها بالقوة من قبل الجنرال الفرنسي غورو[١].

عندما تمَّ تنصيب فيصل ملكًا على العراق، تبعه ساطع الحصري، الذي رفض أن يستلم وزارة المعارف مفضلاً عليها وظيفة مدير عام الوزارة، لتغير الوزارات بشكل سريع في المملكة العراقية التي لم تستقر بعد بشكل كلي، يحتاج برنامجه التربوي للنهوض بوزارة التربية والتعليم إلى ثبات ووقت طويل.

١- للتعرف على حياة ونظريات ساطع الحصري يمكن الإطلاع على كتبه العديدة، أو العودة إلى المصادر التالية:

- **تيخونوفا، ساطع الحصري/ رائد المنحى العلماني في الفكر العربي، موسكو: دار التقدم ١٩٨٧.**
- **وليم كليفلاند، ساطع الحصري/ من الفكرة العثمانية إلى العروبة، ترجمة: فكتور سحاب، بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣.**
- **أحمد يوسف وآخرون، ساطع الحصري/ ثلاثون عامًا على الرحيل، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.**
- **د. موسى الحسيني، ساطع الحصري والخطاب الطائفي الجديد، لندن: دار الكوثر، ٢٠٠٠.**

سبق أن أشرنا إلى أن مراجع الشيعة أفتوا بتحريم العمل بوظائف الدولة العراقية أو إرسال الأطفال للدراسة في مدارسها، بالمقابل كان الملك فيصل يصر على ضرورة أن يكون هناك وزيرين من الشيعة على الأقل، خصصت وزارة المعارف ووزارة أخرى للشيعة، كان الملك فيصل مطمئن من خبرة وكفاءة ساطع في إدارة الوزارة وتطويرها، إن اختيار وزير شيعي للمعارف كان يهدف تشجيعهم على إرسال أبنائهم للمدارس.

شكلت قضية إيجاد وزير شيعي للمعارف مشكلة عند كل حالة تغير وزاري، مع أهمية رمزية وجوده لمنع الاعتقاد بإبعاد الشيعة عن الحكومة، أصبح المطلوب إيجاد وزير شيعي ولو بأدنى المواصفات، المهم أنه يقرأ ويكتب ويقبل بالعمل في الدولة، تمَّ العثور في وزارة جعفر العسكري عام ١٩٢٦، على عبد المهدي المنتفكي، الذي وافق على كسر فتاوى المراجع في تحريم الخدمة في حكومات غير شيعية ولا تأتمر بقيادة واحد من الأئمة، أي أن الرجل ما كان ليعير ولو أدنى اهتمام لفتاوى المراجع، ولم يعرف عنه من قبل كرمز من رموز الشيعة، فامتيازات وزير خير من ألف حسنة أو قصر بالجنة بكل حوره العين السبعين التي يعد بها رجال الدين أتباعهم في الآخرة.

كانت الهوة كبيرة بما لا يمكن أن تقاس بين مدير عام مفكر وخبير بشؤون الثقافة والتعليم يمتلك تراكم من الخبرات التربوية والإدارية، ووزير أمي تعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب، مهنته الأصلية مهوسجي، أي شاعر شعبي، ينظم بعض الأهازيج في مدح هذا وذاك من شيوخ الإقطاع مقابل أن يعطفوا عليه بهدية مما جاد بها الله عليهم.

هو الآن وزير، لعله ما كان يحلم يومًا أن يكون فراش أو قهوجي بباب الوزير ، مقابل مدير عام خبير، مثقف، يشهد له العرب والأتراك بسعة الخبرة بشؤون التربية والتعليم، وهو أيضًا لا الوزير يمتلك الصلاحية وفقًا لقانون الوزارة في تعين من يراه مؤهل لأن يكون معلمًا في مدارس العراق.. لا يلومن أحد عبد

المهدي المنتفكي، الإحساس والشعور بالصغر، أمام مديره العام، إحساسات كهذه تدفع وتعزز أحيانًا دوافع التحدي والمجابهة.

قضية تعيين الجواهري معلمًا للغة العربية في المدارس الابتدائية:

كان الحصري ينوي السفر للنجف، التي داوم على زيارتها، استغل الوزير الفرصة ليتوسط عنده في تعيين شاب شاعر مبدع، لم يكن الجواهري عندها معروفًا، سأل عنه الحصري مضيفيه من الشيعة من أهل النجف، فكانوا أن أعطوا الحصري صورة سيئة عنه، كشاب فاسد لا يستحق الاهتمام، أصر ساطع على رؤيته إكرامًا للوزير الذي أوصاه به، يبدو أن عائلة الجواهري كغيرها من آلاف العائلات العراقية العربية كانت تفضل خلال فترة الحكم العثماني للعراق التجنس بالجنسية الإيرانية تهربًا من أداء الخدمة العسكرية والضرائب التي تفرضها الدولة العثمانية على مواطنيها[1]، لم يحاول الجواهري تغيير جنسيته، رفض الحصري تعينه إلا بعد أن استبدل الجواهري جنسيته الإيرانية بالعراقية.

كانت صدمة للوزير الأمي الذي رأى بموقف الحصري ما يعني أن لا كلمة له بالوزارة، ومثلها للحصري أيضًا الذي رأى أن الوزير لا يعطي أي اعتبار للوائح القانونية والإدارية.

تربص الاثنين الواحد ضد الآخر، الحصري مسلحًا بالقانون والحرص على المصلحة الوطنية العراقية، وإنجاح ما مكلف به من مهمة الارتقاء بوزارة

١- ناقش علي المؤمن الأسباب التي دفعت بعض العرب في العراق إلى التجنس بالجنسية الإيرانية في زمن الدولة العثمانية، لاحظ: علي المؤمن، سنوات الجمر، لندن: دار المسيرة، ١٩٩٣، ص:٢١٥- ٢١٨.

التربية والتعليم، ولا سلاح للوزير الأمي إلا أن يلجأ للنعرات الطائفية في صراعه مع الحصري حول الصلاحيات في الوزارة[1].

ظل الحصري يتربص بالجواهري الذي نشر قصيدة له يتغنى بها بالطبيعة في إيران فقام بفصله مباشرة.. لم يفوتها له الوزير التي تصاعد إحساسه بالصغر إلى حد أنه لا يستطيع تعيين معلم بمدرسة ابتدائية، وعند تعيينه بوساطة الملك لا يتردد الحصري من طرده بحجة واهية.

قبل ذاك كان الحصري قد تعاقد مع مجموعة من خريجي الكليات من السوريين واللبنانيين لسد النقص في التعليم الثانوي، أصبحوا هم موضوع رصد الوزير الذي عرف أو اكتشف أن أحدهم كان قد كتب كتاب عن تاريخ الدولة الأموية، المكروهة من قبل الشيعة والمدانة بمحاربة الإمام علي، وقتل الإمام الحسين، فكانت فرصته الذهبية ليخلق منها مشكلة.

تحقق للوزير ما أراد وما يمكن أن يُهدئ شعوره بالنقص أمام مديره العام، تمَّ طرد المدرس، فخرج بعض طلاب الثانوية ودار المعلمين في بغداد بمظاهرة استنكار لما اعتبروه تقييد لحرية الفكر، شارك بها الطلاب الشيعية رفاقهم طلاب السُنَّة فيما اعتبروه حيفًا وقع على أستاذهم، وتجاوزًا على حرية الرأي، انتهى الموضوع عند حد طرد بعض الطلاب من مدارسهم[2].

١- للإطلاع على تفاصيل قضية الجواهري من وجهة نظر الحصري راجع: ساطع الحصري: مذكراتي في العراق -١٩٢١-١٩٢٧، الجزء الأول، بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧، ص:٥٨٨-٦٠٢.. كما تتضح طبيعة النزاع بين الحصري والمنتفكي على كونه نزاع حول الصلاحيات من خلال المراسلات التي حصلت بين الاثنين حول توظيف الجواهري، المذكرات: ص:٥٩١-٦٠٢.

٢- حول قضية النصولي راجع:

- نفس المصدر، ص: ٥٥٧-٥٧٥.

- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص:٨٨-٨٩.

- حسين جميل، العراق – شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠، لندن: دار الام، ١٩٨٧، ص:١٨٣-٢٠١.

اعتبر بعض الشعوبيين من الداعين لتقسيم العراق أن هذين الموضوعين يشكلان دلالة كبرى على طائفية الحصري، وبالتالي طائفية الدولة العراقية بوزاراتها المختلفة، تلك هي أهم مفاصل أو محطات التنافر الشيعي – السُّني ، التي بقيت مهما حاول البعض أن يُلبسها ثوب الأحداث الكبرى محصورة بين النخب ولم تنزل للشارع أو تأخذ اهتمام الرأي العام.

التمحيص الدقيق لتفاصيل الحادثتين يؤشر أن لا علاقة للمعتقدات المذهبية أو الطائفية بالأمر، بل كانا نتاج صراع على الامتيازات والصلاحيات الإدارية بين وزير المعارف الأمي عبد المهدي المنتفكي، الذي تعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب، لا علاقة تربطه بالتربية أو التعليم أو الثقافة والفكر، فهو ليس إلا (مهوسجي) أي شاعر أهازيج شعبية يقرأها في المناسبات الشخصية والعامة طمعًا في عطاء من يمتدحهم، مع مدير المعارف العام ساطع الحصري، مفكر، صاحب نظريات معروفة في التربية والتعليم، علماني حتى إنه ما كان يعرف أن هناك مذاهب وفروقات وانقسامات مذهبية في الإسلام إلا وهو في طريقه للعراق لاستلام منصبه، حيث سمع لأول مرة أن هناك مذهب يسمى التشيع، ويتعرف على الفروق بين المذهبين من رفيقه في السفر الشاعر عبد المحسن الكاظمي، وهو شيعي أيضًا ، فليس من المعقول أن يعطي صورة أو انطباع سيء عن الشيعة للحصري[1].

كان عبد المهدي المنتفكي وزير يرى في الوزارة امتياز ووجاهة يتطلع لأن يستغل منصبه ويتصرف بالوزارة بالكيفية التي تعزز مكانته الاجتماعية أو ترضي غروره، وهو يجد نفسه فجأة يقف في صف النخبة العراقية بمنصب لا يحلم به، بل قد لا يكون يحلم أن يكون آذنًا في باب الوزير، ومدير عام يرى في المنصب مسؤولية والتزام يخضعان لمعايير علمية، منهجية محددة وثابتة، كانت صلاحيات تعيين الموظفين ووضع واختيار المناهج، والسياسة العامة

١- ساطع الحصري، مصدر سابق، ص:١٤.

للوزارة من صلاحيات ساطع الحصري، لا يمتلك الوزير خبرة إدارية أو منهجية يمكن أن يواجه بها الحصري، ظل الوزير يتسقط خطوات الحصري ليعطيها معنى طائفي، فالطائفية هنا كانت سلاح الوزير الوحيدة لا حرصًا على الشيعة والتشيع، بل وسيلة يستنجد الوزير عون الآخرين بها للخلاص من قيود الحصري عليه، بأمل أن يحصل على بعض من امتيازاته وصلاحياته.

من الوقائع التي تؤشر إلى غياب الدوافع الطائفية الحقيقية عند عبد الهادي المنتفكي بعد حوالي السنتين، والمنتفكي خارج الوزارة، حصلت حركات تمرد عشائري لعشائر بني ركاب التي تقطن نفس المنطقة التي ينتسب لها المنتفكي، فانتدبه وزير الداخلية في حينها رشيد عالي كوسيط لحل الخلاف بين العشائر المتمردة والحكومة، عندما رفضت العشائر المتمردة وساطته، وكان يطالبهم بإنهاء التمرد بدون قيد أو شرط، وجه المنتفكي نداء لوزير الداخلية بضرورة استخدام كافة أشكال القوة والشدة لقمع المتمردين، وضربهم بالمدفعية والطيران[1]، بني ركاب من العشائر الشيعية المعروفة ومن سكنة مسقط رأسه..

السؤال الغريب كيف يفسر المنتفكي اتهاماته للحصري بالطائفية، ويفتعل تلك الضجة لرفض الحصري تعيين معلم شيعي – الجواهري – لا يمتلك الوثائق المطلوبة للتعين، ولا يتحرج من تحريض الحكومة لقتل أبناء العشائر الشيعية وإهدار دمائهم لأنهم رفضوا وساطته التي كان يبغي منها على ما يبدو تعزيز مكانته عند وزير الداخلية، آملاً بأن يحظى بمقعد وزاري جديد، نجح المندوب الذي أعقبه، جعفر حمندي متصرف (محافظ) الناصرية، في تسوية الخلاف بين الحكومة والمتمردين دون الحاجة لاستخدام القوة التي دعى لها أو طالب بها المنتفكي.

١- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص:١٦١-١٦٥.

لاحظ عالم الاجتماع العراقي علي الوردي السمة التي اتخذتها الطائفية في حينها، فيصفها: "بدأت الطائفية في العراق تأخذ شكلاً جديدًا، فبعد أن كانت الطائفية نزاعًا مذهبيًا؛ أصبحت الآن نزاعًا على الوظائف"[1].

إن الارتباط بين النزعات الطائفية والوظائف يعود سببها إلى العوامل التالية:

الأول: حرَّم مجتهدو الشيعة الدخول في مدارس الدولة، أو العمل في وظائفها، إلا أن الشيعة أدركوا لا منطقية هذا التحريم والمنع، فبدأوا يدخلون أولادهم المدارس، وينشدون التوظيف في دوائر الدولة بوقت متأخر نسبيًا عن أبناء الطائفة السُنّية، كان من الطبيعي ألا يجدوا فرصًا للعمل في مؤسسات الدولة بنفس السهولة التي توفرت لأبناء السُنَّة عند بداية تَشكلْ الدولة العراقية.

الثاني: تعمدت الدولة العثمانية حرمان أبناء الطائفة الشيعية من دخول المدارس الرسمية، أو التعين بوظائف الدولة، فكان من الطبيعي أن يكون هناك كادر متعلم من الموظفين الذين خبروا العمل الوظيفي من أبناء الطائفة السُنّية في العراق، لم يتوفر مثله عند الشيعة، يغدو من الطبيعي أيضًا أن يحتل هذا الكادر الوظائف الحكومية في الدولة العراقية الحديثة، الطائفية هنا ليست موقفًا من سُنة العراق ضد إخوانهم الشيعة؛ بل نتيجة للمواقف الطائفية للدولة العثمانية[2].

الثالث: لعبت ما يُعرف بالمحسوبية والمنسوبية دورًا مهمًا في قضية الوظائف والتوظيف، لكن أحد لم ينتبه إلى حقيقة أن هذه المحسوبية لا تعكس موقفًا طائفيًا؛ بل حالة من الالتزام أو الولاء للعشيرة والمدينة، عندما يتقدم اثنان من أبناء الطائفة السُنّية، مثلاً، لوظيفة في دائرة؛ أحدهما من نفس مدينة أو عشيرة صاحب القرار أو المدير في الدائرة المعنية، والآخر من مدينة أخرى، لا شك أن صاحب القرار أو المدير سيفضل ابن مدينته أو عشيرته، حتى ولو كان أقل

١- د.علي الوردي، وعاظ السلاطين، لندن: دار كوفان، ١٩٩٥، ص:٢٦٠.

٢- د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص:٢٦٢-٢٦٣.

خبرة أو كفاءة من الآخر، إن من المعروف مثلاً أن مولود مخلص كان يدفع ويشجع ويتوسط لقبول أبناء مدينته تكريت للدخول في الكلية العسكرية، وبقية الكليات أو الالتحاق ببقية وظائف الدولة[1].

رابعًا: حاول رئيس الوزراء الشيعي السيد محمد الصدر تشجيع أبناء مشايخ الطائفة الشيعية للالتحاق بالكلية العسكرية، التحق خمسة منهم، ثم انسحب محمد منشد الحبيب وآخر معه بعد أيام من الدوام في الكلية، مستنكرين وهم أبناء المشايخ، المصطلحات العسكرية التي تلزم الما دون أن يستجيب للما فوق ويخاطبه بمصطلح (سيدي)، وغيرها من مصطلحات الخدمة العسكرية، وهم لا يعرفون أصل وفصل هذا الأمر (أو الما فوق)، في حين ارتقى الطلاب الثلاثة الذين استمرا في الكلية، ناجي طالب، محسن حسين الحبيب وحميد الحصونة، أعلى المناصب والرتب في الجيش العراقي دون أن يُؤثر انتمائهما الطائفي عليهما، ووصل ناجي طالب لمنصب رئيس الوزراء مرتين أيام حكم الأخوين عارف، واستلم عدة وزارات في العهد الجمهوري، واستلم محسن حسين الحبيب وزارة الدفاع في وزارة طاهر يحيى (المتهم هو الآخر بالطائفية)، واستلم حميد الحصونة قيادة الفرقة الأولى أهم وأقوى الفرق العسكرية العراقية.

عاد الحديث عن طائفية الوظائف للظهور بشدة في زمن الرئيس عبد السلام عارف، كانت توجهات عارف القومية تثير مخاوف شاه إيران من أن يمضي عبد السلام عارف قدمًا في التقارب مع عبد الناصر، إلى حد إعلان الوحدة بين مصر الناصرية (ج.ع.م)، فراح يحرك عليه الأكراد في الشمال يدعم تمردهم بالمال والسلاح، من جهة، ودفع المرجع الديني في حينها محسن الحكيم

١- حول تفشي ظاهرة الوساطة والمحسوبية والمنسوبية في العراق، لاحظ: د.علي الوردي، طبيعة المجتمع العراقي، طهران: انتشارات المكتبة الحيدرية، ١٩٩٦، ص:٣٥٨.

ليتحرك ضغطًا على عبد السلام بحجة أن الوحدة ستجعل من الشيعة أقلية في الدولة الجديدة[1].

عندما يأخذ الإنسان بالحسبان، زيارة السفير الأمريكي لمحسن الحكيم بعد فترة من إصداره الفتوى ضد الشيوعية، تلك الزيارة التي لا شك أنها أطرت العلاقة بنمط معين من الأواصر وروابط التعاون بين الطرفين، مقابل ما تمثله المرحلة من وصول الخلافات والنزاعات بين الحركة القومية العربية ممثلة بزعامة عبد الناصر والغرب بقيادة أمريكا، ذروتها.. لا شك أن أمريكا لم ولن تستسلم لمخاوفها، ولا تفوت فرصة العلاقة مع محسن الحكيم هذه دون الاستفادة منها في المواقف المحرجة والمحبطة لتوجهاتها في المنطقة العربية، سواء كان التحريض الأمريكي لمحسن الحكيم تمَّ بشكل مباشر أو من خلال الحليف الأقوى لها شاه إيران، لذلك لا يمكن تغييبه عن الصورة كعامل دفع لمحسن الحكيم في موقفه المعادي لسير الحركة القومية العربية في العراق.

كان تحرك محسن الحكيم بهذا الاتجاه يمثل أخطر وأخبث مرحلة من مراحل التحرك الشعوبي الفارسي المندس في التشيع، فهو بمعانيه ودلالاته العميقة يعني طرح الهوية الطائفية كبديل عن الهوية العربية، بل حتى بديل عن هوية المواطنة العراقية، وطرح المصلحة الوطنية والأمن الوطني العراقي أو العربي جانبًا لصالح الهوية الطائفية، والأمن القومي الإيراني وحتى الإسرائيلي، كانت تلك هي الخطوة الأولى باتجاه تقسيم العراق (مشروع استراتيجية إسرائيل لثمانينات وتسعينات القرن العشرين)، الذي نجد أبناء الحكيم وأحفاده يسيرون على نهج الأب محسن الحكيم في فترة ما بعد الاحتلال.

١- حول مخاوف الشاه وردود فعله تجاه التقارب العراقي – المصري، لاحظ: صبحي عبد الحميد، مذكرات: العراق في سنوات الستينات ١٩٦٠-١٩٦٨، دمشق: دار بابل، ص: ١١٩-١٢٥.

ترافقت المرحلة مع تزايد أعداد خريجي الثانوية العامة بأعداد لا تستوعبها دوائر الدولة، ولا إمكانيات جامعة بغداد (كانت هي الجامعة الوحيدة في حين أن كل من جامعتي الموصل والبصرة كانتا في طور الإعداد والتكوين).

سبق أن أشرنا إلى أن مراجع الشيعة كانوا قد حرموا الدخول في دوائر الدولة ومدارسها، كسر أبناء الطائفة هذا التحريم بتسارع كبير منذ نهاية أربعينات القرن العشرين، وارتفعت أعداد الملتحقين بالمدارس الحكومية بحجم كبير تتناسب وحجمهم السكاني، ظهرت نتائج هذه الظاهرة في بداية الستينات بشكل واضح ومكشوف، آلاف من خريجي الثانوية لم يجدوا لهم من الأماكن ما يمكن أن يستوعبهم، لا في الجامعة، ولا في دوائر الدولة.

بينما كان من الممكن حتى نهاية الخمسينات أن يجد خريج المدرسة الابتدائية أو المتوسطة مكاناً للحصول على وظيفة في الدولة أو في بعض المعاهد الوسطية.. استغل محسن الحكيم وأتباعه هذه الظاهرة ليروجوا لفكرة أنها عملية مقصودة ومنظمة من قبل عبد السلام عارف الطائفي ضد الطلاب الشيعة، كما بدأ ينشط في كافة المجالات لبث وتأجيج المشاعر الطائفية.

كان عبد الكريم قاسم قد شكَّل قانون مجلس الخدمة المدنية، جرد بموجبه الدوائر والوزارات صلاحية التوظيف وحصرها بمؤسسة جديدة أسماها (مجلس الخدمة)، أي أن أية دائرة أو وزارة تحتاج لتعيين عدد من الموظفين الجدد، تقوم بإرسال بيانات عن حاجتها بالعدد والاختصاصات المطلوبة لمجلس الخدمة الذي يعلن بدوره رسميًا عن حاجته لمن يرغب للتعيين في وزارات الدولة، لتتم المفاضلة بين المتقدمين على أساس الكفاءة.

سواء كان بمبادرة من عبد السلام عارف، أو استجابة منه لهذه الضغوطات الطائفية؛ عين الدكتور محمد حسين آل ياسين وهو شيعي رئيسًا لهذا المجلس،

وعندما أكمل مدة خدمته، وهي ٥ سنوات عين من بعده مشكور أبو طبيخ، الذي استمر حتى انقلاب البعث في تموز١٩٦٨[١].

الغريب بالأمر أن الحزب الشيوعي العراقي بدأ يساهم وبنشاط في استغلال ظاهرة تزايد الخريجين العاطلين عن العمل هذه، ليروج هو الآخر لإشاعة كونها نتيجة لسياسة عبد السلام الطائفية، من خلال الترويج لفكرة أو إشاعة (الشينات الثلاثة) أي شيعي، شيوعي، شروقي (من سكان مدن شرق دجلة الجنوبية، وهي مدن ذات غالبية شيعية مطلقة) بمعنى آخر تقول الفكرة إن أي شيعي يتقدم للعمل في وظائف الدولة أو الانتساب للجامعة؛ يكتب الموظف المسؤول عن استلام الطلبات (٣ ش) على الملف ويركنه جانبًا للإهمال.

روج الحزب الشيوعي المُعادي لمشروع الوحدة أيضًا ، لأهزوجة خبيثة أخرى ذات دلالة (حاج مشن سفن آب، راح لمصر جاب قحاب)، المقصود بالحاج مشن هو عبد السلام عارف، سخرية.. الحاج تعني أنه متدين، وبما أنه متدين فهو بالضرورة طائفي, والرمز لمصر بالقحاب، يشير ألا فائدة من الوحدة مع مصر غير نشر الرذيلة كما تظهر من خلال شيوع وصلات الرقص في الأفلام المصرية، تبنت بطانة الحكيم نفس الشعارات لتروج لها، فانتشرت في مدن الجنوب وحتى في القرى النائية مثل هذه الاشاعات.

مؤشر خطير يعني أن الشعوبيين يتناسوا بمواجهة الأهداف الكبرى عداءاتهم البينية، يلتقي أقصى اليسار بأقصى اليمين بحركة واحدة في عدائهم وكرههم للعرب، هكذا كان ظهور هذه الموجة من المشاعر الطائفية لا علاقة لها بالمذهب ولا بحقوق الطائفة بقدر ما الغاية منها كانت تطمين مخاوف النقيضين (شاه إيران وأمريكا من طرف والحزب الشيوعي العراقي من طرف آخر) من

١- راجع ما كتبه الأستاذ صبحي عبد الحميد من رد على جلال الطالباني في محاولته إثارة النعرات الطائفية بين الشيعة والسنة بحجة مظلومية الشيعة، على الرابط التالي:

http://articles-to-read.blogspot.co.uk/2008/01/blog-post_5700.html

احتمالية قيام الوحدة بين مصر والعراق، لأول مرة في التاريخ أيضًا يوضع الشيعة بمقابل العرب لصالح إيران وخدمة للمصلحة الوطنية والأمن الوطني الإيراني، نفس النهج الذي سار عليه أولاد الحكيم من بعده.

في ١٤ تموز ١٩٦٤ أعلن عبد السلام ما يُعرف بالقرارات الاشتراكية فكانت فرصة أخرى للحكيم ليعلن احتجاجه ضدها، واعتبارها خطوة طائفية المقصود بها ضرب مصالح التجار الشيعة، مع أن التأميمات الكبرى أضرت بمصالح الرأسماليين من السُنَّة لا الشيعة، مثل فتاح باشا، محمد حديد، جقمجي، الدامرجي وغيرهم من أصحاب كبار الشركات والمصانع من السنة، ولم يتضرر أحد من تجار الشيعة الذين كان غالبيتهم يعمل في سوق الشورجة كموزعين لما تنتجه هذه المعامل من بضائع.

قد تكون التأميمات أثرت أو أربكت العمل في المؤسسات المؤممة؛ ما أثر بشكل غير مباشر على أعمال تجار الشورجة الذين تعتمد تجارتهم على التوزيع، لكنهم ليسوا هم المقصودين، ولم يكونوا المتضررين مباشرة من التأميمات، التفسير أن تجار الشورجة الذين أرهقتهم مطالبات الحكيم بالخمس والزكاة، أخذوا من القرارات الاشتراكية عذر ليتخلصوا من هذا الابتزاز فتوقفوا عن الدفع، إذا كان هناك من دلالات طائفية للقرارات الاشتراكية يمكن القول إنها كانت موجهة قصدًا ضد الرأسمالية السُنّية لا الشيعية[١].

إن قراءة أحداث المرحلة تُشير إلى أن طائفية محسن الحكيم لا علاقة لها بالحرص على الطائفة ولا المذهب، كانت تيارًا شعوبيًا بخدمة شاه إيران

١- حول القرارات الاشتراكية، نصها، آثارها ونتائجها يمكن مراجعة:

- صبحي عبد الحميد: مذكرات، مصدر سابق، ص:١٦٣-١٦٦، إضافة للملاحق، كذلك:

- أمين هويدي، كنت سفيرًا في العراق ١٩٦٣-١٩٦٥، القاهرة: دار المستقبل العربي: ١٩٨٣، ص:١٩٦ - ٢١٥.

- مجيد خدوري، العراق الجمهوري، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤، ٣١٢-٣١٥.

المرعوب من التقارب العراقي – المصري، والخائف من قيام دولة قوية على حدوده الغربية، مقابل محاولات عبد السلام الكثيرة لتطمين محسن الحكيم في أن سياسته لا تستهدف الشيعة، فكان لأول مرة بتاريخ العراق تأتي وزارة طاهر يحيى تتضمن ٧ وزراء شيعة من ٢١ وزير، لأول مرة أيضًا يستلم وزارة الدفاع ضابط شيعي هو محسن حسين الحبيب. وأن يُعين رؤوساء لمجلس الخدمة الخاص بالتوظيف بالدوائر العراقية من الشيعة من أبناء عوائل شيعية – عربية عريقة[١].. هذه الوقائع تُثبت حقيقة أن عبد السلام عارف كان واقعًا تحت ابتزاز الاتهام بالطائفية لا العكس.

من الحوادث المخجلة والتي بدأت تكشف مواقف محسن الحكيم الشعوبية الحاقدة الحقيرة، وتقلل من احترامه عند عامة الشيعة؛ هي ما حصل من اختلاف حول رؤية هلال عيد الفطر في عام ١٩٦٤، تتعمد إيران ومراجعها تأخير مواعيد عيدي الفطر والأضحى يوم واحد؛ بغية تعزيز مشاعر الإيرانيين بالوحدة والتفرد والاختلاف عن بقية المسلمين، ويتعمد مراجع الشيعية في العراق من الإيرانيين ولاءً ونسبًا، باعتماد الطريقة الفارسية في تأكيد رؤية الهلال الخاص بالعيدين، حتى صار شيعة الجنوب من الجهلة يسمون العيد بتسميتين: عيد الحكومة، عيد المسلمين.

أراد عبد السلام أن يغلق باب الاختلاف ويحقق وحدة الشعب بفرحته بالعيد، ورغم أن الجهات الرسمية الحكومية أكدت رؤية الهلال بعد ٢٩ يوم من الصيام، فرض عبد السلام إرادته، ومنع الإعلان الرسمي عن العيد، واعتبار اليوم التالي هو يوم إكمال العدة بأمل أن يتوحد عيد الطرفين، وتم ذلك، لم يبقَ أمام عبد السلام إلا أن يعلن العيد في اليوم الثاني منه، فالهلال بدا يبدو للعارفين هلال أبو ليلتين، وحجته بإكمال العدة انتهى مفعولها.

١– حول وزارة طاهر يحيى راجع: مجيد خدوري، مصدر سابق، ص:٢٩٥ –٣١٨.

مع ذلك أصر محسن الحكيم على القول بإنه لم يثبت عنده رؤية الهلال، وأَخَّر العيد يومًا ثالث، حتى لم يبقَ له من عذر والهلال بدا بوضوح هلال الليلة الثالثة، أي أنه ألزم الشيعة أن يصوموا يومين من عيدهم، كانت مسخرة ضحك منها الشيعة قبل السنة، لكنها كانت دلالة كبرى على توجه محسن الحكيم لتقسيم المسلمين وعزل الشيعة من عرب العراق عن دولتهم وفرض الهوية الطائفية كبديل لهم عن هوية المواطنة العراقية.

إن علاقة عبد السلام بالمراجع الشيعة من العرب كانت تصل إلى حد الصداقة الشخصية، كما هو الحال في علاقته بالشيخ محمد الخالصي، لعل هذه الصداقة كانت أحد أهم أسباب حقد محسن الحكيم على عبد السلام بتأثير الحسد والغيرة.

تتوحد التوجهات الشعوبية الكارهة لكل ما هو عربي خدمة للشاه ومصالح إيران الأمنية والقومية، كما هو موقف محسن الحكيم، مع التوجهات الشعوبية عند من ينتسبون للتشيع اسمًا، ممن هم من أصول هندية أو فارسية من المحسوبين على النخب الثقافية العراقية لتصنيع مؤامرات سنية لإبعاد الشيعة من عرب العراق عن الحكم، تمتزج هذه التوجهات مع مشاعر الإحساس بالدونية والنقص عند بعضهم لتفبرك القصص الغريبة عن مؤامرات سنية بالاتفاق مع المعتمد البريطاني لإبعاد الشيعة عن الحكم، تطورت أساليب هذه الحملات لتربط الطائفية هذه المرة برموز قومية عربية مثل ساطع الحصري للإيحاء أو لتشكل توجهات جديدة عند جُهَّال الشيعة بأن كل ما هو قومي عربي يستهدفهم كطائفة وهدف لتجريدهم من هويتهم العربية، فتأتي كخطوة مكملة لتوجهات المراجع من التبعية الإيرانية لعزل الشيعة عن دولتهم الوطنية وإحلال فكرة الهوية الشيعية كبديل عن هوية المواطن في الدولة العراقية.

هدأت الطائفية خلال عهد الرئيس عبد الرحمن عارف، بعد تراجع موضوع الوحدة بين العراق ومصر الناصرية وتناسى الناس حاج مشن وشيناته الثلاث، إلى أن أججها ثانية نظام البعث كما سيأتي الحديث عنه في الفصل القادم.

محطات التجاذب:

مقابل محطات التنافر الواضحة كونها مُصنعة عمدًا في أعلاه التي يضخمها تجار الطائفية، وأصحاب الارتباطات المشبوهة، ليصنعوا منها أحداث ضخام ذات مدلولات خطرة على وجود مؤامرات مقصودة ومخططة لإبعاد الشيعة من عرب العراق عن الحكم، فإن الكثير من أحداث عهد الملكية في العراق تنقض كل قصصهم المفبركة، وتؤكد إلى حصول تلاحم بين الطائفتين أمام أحداث فعلية وقعت خلال في حينها تنفي كل إدعاءاتهم المغرضة.

١: عندما أعلنت بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية، ووصلت طلائع جيوشها إلى البصرة، مالت النخب السُنّية العراقية من الضباط العراقيين العاملين في الجيش العثماني للتحالف مع بريطانيا، التحقوا بطلائع الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين ضد العثمانيين، بالاتفاق مع بريطانيا، كان هؤلاء الضباط، هم أداة وقادة ما يعرف بالثورة العربية الكبرى.

بالمقابل استنكر علماء الدين الشيعة من العرب بقيادة السيد محمد سعيد الحبوبي إعلان بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية المسلمة، وإرسال طلائع قواتها لاحتلال العراق، أعلنوا الجهاد دفاعًا عن الدولة العثمانية وتوجهوا لتشكيل وحدات من المتطوعين، ذهبت فعلاً للقتال إلى جانب الجيوش التركية السُنّية في البصرة، بما عُرف بحركة المجاهدين، وقدموا كثير من الضحايا دفاعًا عن الدولة العثمانية، وكانوا أخر من انسحب من الجبهة بعد انسحاب القوات التركية التي تركتهم عرضة لنيران القوات البريطانية، رغم أن الدولة العثمانية كانت تضطهدهم وتحرمهم من دخول مدارسها، أو العمل في دوائرها الحكومية[١].

١- حول حركة المجاهدين عام ١٩١٤، راجع:

- عبد الله فهد النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، بيروت: دار النهار، ص:٨٠- ١١٠. / - عبد الحليم الرهيمي، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، بيروت: الدار العالمية للنشر، ١٩٨٥، ص:١٦٣- ١٨٣.

ولعلَّ قصة الشجرة الخبيثة على أطراف مدينة الناصرية تشكِّل إحدى الدلالات، للمقاومة التي قابلت بها المدن والعشائر العربية العراقية تقدم القوات البريطانية في الأراضي العراقية عام ١٩١٤، ففي خلال تقدم بعض القطعات البريطانية في عملية التفاف من جهة الصحراء الغربية، صادفت تقدمها شجرة ضخمة، على مشارف مدينة الناصرية، كان يحتمي بها ثلاث من أبناء العشائر ليقنصوا أفراد القطعات المتقدمة، وعبثًا حاول القائد العسكري البريطاني إسكات نيرانهم التي عطَّلت تقدمه، فصرخ بجنوده أين مدافع الهاون، اضربوا هذه الشجرة الخبيثة، ظل أبناء مدينة الناصرية يتفاخرون أنهم من أبناء الشجرة الخبيثة، زهوا بمشاركتهم في التصدي للاحتلال البريطاني وصمود أبطالهم، إلى أن بدأ إعلام صدام حسين بعد حرب الكويت يقلب معنى المصطلح ويستخدمه للدلالة على خبث نفوس أهل المدينة.

بالرغم من ذلك فقد عبَّر مواطني المدينة الشيعية عن اعتزازهم بكرامة وسيادة بلدهم في حرب ٢٠٠٣، بنفس طريقة وروحية شهداء أبطال الشجرة الخبيثة عندما فاجأ مقاتلون مدنيون من أهل المدينة قوة من المارينز الأمريكي تقدمت متسللة في فجر يوم ٢٣ آذار ٢٠٠٣ لاحتلال جسور المدينة، تمهيدًا لمرور القوات الأمريكية خلال تقدمها اتجاه بغداد فكانت ملحمة قُتل بها ١٨ من جنود المارنيز، أُجبرت القوات الأمريكية أن تغير مسار تقدمها لتغطس دباباتهم بالوحول والأهوار.

تصف جريدة نيويورك تايمز المفاجأة كدليل على فشل المعلومات الاستخبارية الأمريكية بالقول: "أكثر ما كان يبعث على الذهول في الناصرية خلال تلك الأيام الأولى من الحرب البرية هو رفض العراقيين مسلوبي الحرية التقدم ودعم قوات التحالف"[١].

١- مجموعة كتاب، المقاومة والحرب الأهلية في العراق، ترجمة: مها سلمان سعود، السويداء – سوريا: ٢٠٠٧، ص:٢١٢.

٢: شهدت مرحلة ما بعد الاحتلال البريطاني للعراق ١٩١٤-١٩٢٠، روح وحماس ثائر لم يشهدهما العراق من قبل، شكل مجموعة من مثقفي ورجال الدين وتجار الشيعة مع إخوانهم من مختلف الطبقات من السُنَّة حركة حرس الاستقلال لشد عزائم الطائفتين في العمل المشترك ضد الاحتلال.

يصف مؤرخ العراق في تلك الفترة عبد الرزاق الحسني نشاطات الجمعية "قرر الحرسيون إقامة مواليد نبوية في أهم مساجد بغداد فكانت منقبة النبوية تتلى في كل حفلة مولد لتعقبها خطبة دينية عن جهاد الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، ثم العروج على قضية البلاد السياسية بقدر ما تسمح به الظروف... وقد استفاد العاملون في الحقل الوطني فوائد جمة تمثلت في التقارب الأخوي الذي حصل بين أهل السُنَّة وشيعة الإمام علي بن أبي طالب... وصارت حفلات المولد تقام في مساجد السُنَّة ومساجد الشيعة على السواء"[١].

لم تقتصر نشاطات الوطنيين والقوميين العراقيين في تلك المرحلة على توحيد جهود الشيعة والسُنَّة وتحقيق الوحدة الوطنية لمقاومة الاحتلال، بل امتدت لتشمل المسيحيين أيضًا، قام كل من سلمان أبو التمن (شيعي) وعلي بازركان (سني) بجمع مجموعة من الشباب من الشيعة والسُنَّة لمفاجأة المسيحيين بمشاركتهم في الاحتفال في كنائسهم بعيد الجسد.. وفي حفلات الموالد – التعزية الحسينية، التي كان ينظمها أعضاء جمعية حرس الاستقلال، كانت الخطب تدعو لوحدة المسلمين والمسيحيين واليهود.[٢]

١- حول نشاطات جمعية حرس الاستقلال راجع: السيد عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية ١٩١٨-١٩٥٨، بيروت بلا دار نشر، ١٩٨٣، نفس الكاتب، الثورة العراقية الكبرى، مصدر سابق، ص:٩٥-١٠٠

- حول انتشار ظاهرة الموالد – التعزية في مساجد الطائفتين، لاحظ نفس المصدر ص:١٠٥-١١٠

٢- وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص: ٣٦٤.

لا يمكن المرور بهذه الفترة دون التطرق لنشاطات الشيخ محمد رضا بن المرجع الشيخ محمد تقي الحائري؛ كان لولب الحركة الوطنية التحررية في هذه الفترة، صحيح كان هناك من مجتهدي ورجال الدين الشيعة ممن أسهم بجهود مميزة في هذه الحركة مثل الشيخ مهدي الخالصي، السيد محمد الصدر، الشيخ محمد رضا الشبيبي، الشيخ عبد الكريم الجزائري، الحاج سلمان أبو التمن وغيرهم، إلا أن محمد رضا الحائري كان لولبًا استقطب الجميع ونسق بين حركات الوطنيين في كربلاء والنجف، بغداد وبقية مدن الجنوب، كما تميز عن الجميع بأطروحاته القومية العربية، فقد كان يرفع شعار توحيد الأقطار العربية جميعًا، أرسل محمد رضا الشبيبي إلى الشريف حسين وأبناءه يدعوهم للعمل من أجل تحقيق الوحدة العربية، فهو أول صوت في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى يرتفع في الوطن العربي بالدعوة للوحدة العربية[1].

أزعجت وأقلقت نشاطاته سلطة الاحتلال، كما هو واضح في البرقية التي أرسلتها المس بل إلى لندن: "لقد لعب رضا دورًا بارزًا في الدعاية المناهضة لبريطانيا.. ويعود الفضل بدرجة كبيرة إلى مكائد رضا في كون الدعاية المناهضة لبريطانيا قد اتخذت أبعادًا جعلت من المستحسن إبعاده"[2].

يعتقد عبد الرزاق الحسني أن محمد رضا كان هو السبب وراء الفتوى التي أصدرها أبوه، والتي كانت سببًا لانفجار ثورة العشرين، فهو من كان ينظم الاجتماعات السرية والمظاهرات الكبرى في كربلاء ومدن الجنوب الأخرى

١- حول نشاطات وأفكار الشيخ محمد رضا الحائري يمكن مراجعة:

- عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، مصدر سابق، ص: ١٦٢-١٨٧.

- د. وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص:٣٥٠- ٣٥٥.

٢- برقية دار الاعتماد البريطانية إلى لندن مترجمة في كتاب: وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص: ٣٥٢.

استعدادًا للثورة، ما اضطر سلطات الاحتلال لأن تقوم بإلقاء القبض عليه وإبعاده مع ١١ آخرين من أنصاره إلى جزيرة هنجام في الخليج[١].

٣: عندما اندلعت ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني للعراق، وانتشرت في أغلب مناطق الجنوب الشيعي؛ أرسل المرجع الديني الشيعي في حينها الشيخ محمد تقي الحائري مندوبين إلى الرمادي (الأنبار) وسامراء يستحث عشائرها للانضمام إلى الثورة، فاستجاب له شيخ عشائر زوبع، ضاري الزوبعي، الذي بدأت عشائره بقطع طرق الإمداد البريطانية، تصاعدت خلافاته مع القائد العسكري البريطاني للمنطقة لجمن إلى حد أن قام ابنه سليمان (والد الشيخ حارث الضاري) بإطلاق النار على لجمن، ومن يطلع على نص الحوار الذي جرى بين لجمن والضاري، كما استجاب كل من الشيخ خضير الحاج عاصي شيخ الجنابات، والشيخ علوان الشلال رئيس البومحيي؛ يكشف ولاء الضاري ورفاقه المطلق للمرجعية الدينية في النجف عندما تلتزم المرجعية بالمصالحة الوطنية العراقية[٢].. كما استجاب الشيخ حبيب الخيزران شيخ قبيلة عزة لنداء المرجع وشارك في الثورة[٣].

٤: في ١١ آذار ١٩٢٢، قامت مجموعات كبيرة من عصابات الإخوان الوهابيين، بالهجوم على ضواحي وقرى مدينة الناصرية، قتل ما قُدر في حينها ٧٠٠ من الرعاة، وسلبت مواشيهم، يعتقد المؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسني أن هذه الحملة تمت بدفع وتشجيع من البريطانيين ليظهروا الحكومة العراقية بمظهر العاجز عن حماية مواطنيها، والدفاع عن حدودها، لإجبارها على الموافقة على المعاهدة البريطانية – العراقية، التي تهدف بريطانيا من خلالها

١- عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، مصدر سابق، ١٧٥.

٢- نفس المصدر، ص:٢٧٢-٢٨١. كذلك: د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الخامس – القسم الثاني، ص: ٦٦-٧٥.

٣- عبد الله النفيسي، مصدر سابق، ص: ١٤٨-١٤٩.

ربط العراق بمشيئتها، كبديل عن معاهدة الانتداب، والتي تنص على أن تتولى بريطانيا مسؤولية الدفاع عن العراق، بما ينفي الحاجة لتشكيل جيش عراقي وطني.

انتفض المرجع الديني الشيعي الشيخ مهدي الخالصي ودعى لعقد مؤتمر في كربلاء للضغط على قوات الاحتلال البريطانية والمطالبة بتشكيل جيش عراقي وطني، يتولى مسؤولية الدفاع عن الحدود العراقية، استجابت لدعوته أعيان ووجوه أغلب المدن السُنّية، وجاءت للمشاركة في المؤتمر وفود من الموصل، الأعظمية، تكريت، الشرقاط، وخلال انعقاد المؤتمر وصلت للشيخ الخالصي برقية من أهالي تكريت والشرقاط يذكرون فيها أنهم انتدبوا مولود مخلص ممثلاً لهم في المؤتمر، وأنهم مستعدون لتنفيذ أي قرار يصدر منه والتضحية بأموالهم ونفوسهم، وبرقية أخرى بنفس المعنى من شيوخ عشائر تكريت[1].

لكن الحدث الأهم في دلالته (خاصة لوضعنا الراهن)؛ هو ما قام به الشيخ عبد الوهاب النائب، بتوجيه دعوة لعدد من أئمة السُنَّة في بغداد للاجتماع في تكية الخالدية للتداول في أمر العدوان الوهابي، وتحديد الموقف الشرعي من الإخوان الوهابيين، وصولاً إلى معرفة جواز أو بطلان محاربتهم، وفعلاً انعقد الاجتماع في يوم ٥ نيسان/ إبريل ١٩٢٢، أصدر المجتمعون فتوى بجواز محاربة الإخوان الوهابيين، وقَّع عليها كل من مشايخ سُنة العراق، عبد الوهاب النائب، عبد الملك الشواف، إبراهيم الراوي، خضر القاضي، منير القاضي، عبد الجليل الجميل، طه الراوي، نعمان الأعظمي، علي القرداغي، بهاء الدين النقشبندي، أحمد الراوي، ومحمد رؤوف، واستقر رأي الحاضرين على

١- لتفاصيل أكثر حول هجوم الإخوان على مدينة الناصرية وما اقترفوه من أضرار وجرائم، وتبعات الجريمة ومؤتمر كربلاء راجع:

- رجاء حسين خطاب، العراق ١٩٢١- ١٩٢٧، بغداد: جامعة بغداد، بلا تاريخ، ص:٢٧٤-٢٨٥.

- د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء السادس، ص:١٣٢ -١٥٢.

انتخاب وفد منهم لحضور مؤتمر كربلاء، وفعلاً سافر الوفد يوم ١٠ نيسان/ إبريل، تمَّ نشر الفتوى في جريدة الاستقلال[١].

يبدو أن مؤتمر كربلاء أزعج سلطات الاحتلال البريطاني بما أظهره من تآخي العراقيين من أبناء الطائفتين، فأوعزت إلى أتباعها من شيوخ العشائر الشيعية لعقد مؤتمر مضاد في مدينة الحلة، يطالب بتخويل بريطانيا حق الدفاع عن العراق، والامتناع عن تشكيل جيش وطني عراقي، لم يحضر مؤتمر الحلة من شيوخ السُنَّة عدا واحد من مشايخ عشائر الأنبار.

باستخدام المصطلحات الطائفية كان تشكيل الجيش العراقي مطلبًا شيعيًا، رغم أن المروّجين للطائفية ظلوا دائمًا يشيعون أن الغاية من تشكيل الجيش العراقي هي تحقيق سيطرة الأقلية السُنّية على الأغلبية الشيعية بتقسيمه إلى فئتين، ضباط سنة، وجنود ومراتب شيعة، كما كتب الفاشلين في القبول بالكلية العسكرية بسبب فشلهم بالفحص الطبي الخاص بالكلية العسكرية.

أورد الوزير السابق العميد الركن صبحي عبد الحميد في رده على مقال جلال الطالباني الموسوم (كردي مطلع) والذي أراد به جلال إثارة أو تغذية الفتنة الطائفية بين العرب السُنَّة والشيعة، فأنكر وجود ضباط ركن من الشيعة في الجيش العراقي إبان العهد الملكي، أورد صبحي عبد الحميد في رده أسماء ٢١ من كبار الضابط الشيعة ممن دخل كلية الأركان، ونال رتبة الركن[٢].

يتمتع الضابط العراقي بامتيازات كبيرة، عدا الراتب، هناك الموقع الاجتماعي، لذلك يتهافت الكثير من الطلاب على التقديم للكلية العسكرية، خاصة وأن مدة الدراسة فيها بين السنتين إلى السنتين والنصف، إن طلاب الكلية العسكرية محرومون من العُطل الكبيرة كالعُطلة الصيفية وعُطلة نصف السُنَّة، لاختزال

١- د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء السادس، ص:١٤٤.

٢- رد الأستاذ صبحي عبد الحميد على جلال الطالباني، في الهامش ٢٠ في أعلاه.

فترة الدراسة فيها، كل ذلك يجعل القبول بالكلية امتيازًا يثير الحسد عليه، هي ككل مؤسسة من مؤسسات الدول النامية والعراق منها، يخضع لما يعرف بالمحسوبية والمنسوبية (الجاه والوساطة)، مع ذلك ففي أكثر العهود المتهمة بالطائفية (عهد الأخوين عارف)، تمكن جميع الطلاب من خريجي ثانوية الناصرية للسنوات الدراسية ١٩٦٦- ١٩٦٧، ١٩٦٧- ١٩٦٨ ممن يطمح بدخول الكلية العسكرية أو كلية القوة الجوية، من القبول في الكليتين، دون أي اعتبار لانتماءاتهم الطائفية، التي تتكشف من خلال أسماء بعضهم، مثل علي عبد الحسن، عبد الحسن شكاحي، موسى الحسيني، رياض حميد حميدي، ويعقوب اليعقوبي، عناد جهاد، ولا أشك أن نفس الأمر تمَّ بالنسبة لأبناء المحافظات الأخرى..

عند التخرج اختار عبد الحسن شكاحي صنف التموين والإعاشة مع أنه من خريجي الفرع العلمي ما يؤهله لاختيار صنوف مثل الدروع، المدفعية، هندسة الميدان، الكيمياوي، كما اختار رياض حميد حميدي صنف النقلية، عندما سألته مستعجبًا لماذا هذا الاختيار، أجاب:

– داد موسى أنا ضابط وأنت ضابط؛ أتمتع بكل الامتيازات التي يتمتع بها بقية الضباط، هذا أحسن صنف مريح ويبعدك عن المسؤولية، عندي ٣٠ سيارة نقل و٣٠ جندي سائق وفني، ومكانك دائمًا في المقرات الخلفية، لا حرب ولا قتال ولا دوخة راس.

كما تمَّ في نفس الفترة ممن أعرفهم كل من عبد الأمير الربيعي، عبد الرضا الساعدي، عبد الأمير العبيسي وغيرهم من أبناء المحافظات الجنوبية، ممن تكشف أسماؤهم طبيعة انتماءاتهم الطائفية.

وللأمانة نفس الأمر حصل في عهد البعث، الذي اشترط في القبول أن يكون الطالب منتميًا لحزب البعث، التحق الكثير من الطلاب الشيعة بمختلف الكليات العسكرية، وكلية الشرطة، ودورات كلية الاحتياط الخاصة بالطلاب الفاشلين

في الدراسة الثانوية، التي افتتحها الحزب لزج أكبر قدر من البعثيين في صفوف الجيش.

بمناسبة الحديث عن الطائفية في الجيش، يشكو الشهيد صلاح الدين الصباغ أحد قادة ثورة مايس ١٩٤١ أو ما عُرف بثورة رشيد عالي، من سياسة الإنجليز التي كانت تحرم العرب من الشيعة والسُنَّة من دخول الكلية العسكرية وبقية مؤسسات الدولة، فيقول في مذكراته التي كتبها عام ١٩٤١: "لم تأتِ المعاهدة الإنجليزية على ذكر عدد المواطنين العراقيين من غير العرب، ولم تحدد عدد الذين يقبل منهم في المعاهد العسكرية، إلا أن تسعين بالمائة من القادة القابضين على زمام الجيش كانوا من غير العرب حتى أواخر عام ١٩٣٧، أما نسبتهم خارج مقرات الجيش والمعاهد الفكرية (يقصد بقية مؤسسات الدولة) فكانت خمسين بالمائة، يقابل ذلك أن نسبة المواطنين من غير العرب لا تزيد على العشرة في المائة من مجموع السكان في العراق.

هذه النسبة الساحقة المجحفة كانت بازدياد مطرد حتى قيض الله لي ولإخواني أن نقبض على زمام الجيش، فلما أصبحت معاوناً لرئيس أركان الجيش ومديرًا للحركات؛ وقفت أمام هذا التيار الجارف وعارضت رغبات الإنجليز وأذنابهم الطغاة عندما حددت النسبة بالعدل والإحسان وكان أن عجت المعاهد العسكرية بالطلاب العسكريين من العرب[١]".

أي لا علاقة للقبول في الكليات العسكرية بالتوجهات الطائفية التي يتشكى منها مروجي الطائفية، بمصطلحاتهم؛ إن الشهيد صلاح الدين الصباغ، صاحب هذه الشكوى، سُني وليس شيعي.

٥: كانت النخبة السياسية العراقية في بغداد (وهي في الغالب من أبناء الطائفة السُنّية) منقسمة بين من يؤيد الهيمنة البريطانيا على العراق، أو يعتقد بأنها

١- صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، الرباط: تانيت للنشر، ١٩٩٤، ص:٨١.

ضرورة لأزمة للعراق، وبين الاستقلاليين المطالبين بالاستقلال التام والتخلص من النفوذ أو الهيمنة البريطانية، وهؤلاء منقسمون أيضًا بين من يركز على عراقية ووحدانية العراق وبين العروبيين الذين يتطلعون أولاً إلى تحقيق حد أدنى من التضامن العربي أو للوحدة خاصة مع سوريا، تستثيرهم الأوضاع في الأقطار العربية الأخرى فيتعاطفون معها، تحتل قضية فلسطين التي كانت مهددة بقيام دولة إسرائيل محلاً كبيرًا من اهتماماتهم، يمثل هذا الاتجاه كل من ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني، كلاهما تبوءا مناصب رفيعة مختلفة، وزارة لعدة مرات أو رئاسة وزارة، ورئاسة الديوان الملكي.

لا يلمس المتتبع لأحداث المرحلة أية حواجز طائفية تمنع مشايخ العشائر الشيعية من أن يصطفوا في هذا الانقسام، ويتوزعوا في ولاءاتهم بين النخب البغدادية الثلاث، إلا أن أكثر شيوخ العشائر الشيعية كانت تصطف في صف التيار العروبي، شارك كل من محسن أبو طبيخ عبد الواحد سكر محمد رضا الشبيبي في حزب الآخاء الوطني الذي شكله رشيد عالي الكيلاني في تشرين الثاني ١٩ وفاز الثلاثة في انتخابات الهيئة الإدارية للحزب[١]، ظلت مجموعة المشايخ ذات التوجه العروبي تتكتل وتنظم نشاطاتها في اجتماعات دورية مع رشيد عالي الكيلاني وياسين الهاشمي، في منزل رشيد عالي في منطقة الصليخ – في الأعظمية ببغداد، حتى أطلق على المجموعة جماعة الصليخ، أو مؤتمر الصليخ، التي اتفقت وخططت لاستلام الوزارة وإسقاط حكومة محمد جودة الأيوبي من خلال إثارة بعض التمردات العشائرية في مدن الوسط، وفعلاً تحركت الجماعة وتمكنت من إسقاط وزارة الأيوبي، عندما كلف الملك غازي جميل المدفعي من بعد الأيوبي، وليس ياسين الهاشمي بتشكيل الوزارة، صَعْدت الجماعة (الشيخ عبد الواحد سكر، ومحسن أبو طبيخ والسيد علوان الياسري وحلفاؤهم من المشايخ الآخرين)، تحركاتها المناوئة لحكومة المدفعي التي لم

١- عبد الرزاق الحسني، الأحزاب السياسية العراقية ١٩١٨-١٩٥٨، مصدر سابق، ص: ١١٦.

تتمكن من الاستمرار في موقعها أكثر من ١٢ يوم، ما ألزم الملك أن يكلف ياسين الهاشمي بتشكيل الوزارة، بقدر ما أن الحدث يمثل حالة تجاذب اختفت فيها النزعات الطائفية؛ إلا أن الاتهامات والاتهامات المقابلة بالطائفية لم تختفِ في خضم هذه الأحداث التي اختفت بها تمامًا النزعات الطائفية؛ حيث:

اتهم البعض الشيخ عبد الواحد سكر بأنه يتحرك بنزعات طائفية شيعية، رغم أن رئيس الوزارة المعين كان هو الآخر متهمًا بالطائفية السُنّية.

إن الشيخ عبد الواحد السكر المتهم بالطائفية هنا هو شيخ أكبر فخذ من عشائر آل فتلة الشيعية التي ترجع أصولها لتحالف عشائر دليم السُنّية، أي الأصول الإثنية للعشيرة تجعلها وشيخها تقف منزلة بين المنزلتين من الطائفية بشكلها التعصبي، إلا أن من لم يرتح لموقفه، لم يجد عند الشيخ ما يُعاب عليه، فقالوا طائفي، مؤشر جديد على كيفية استخدام الاتهام بالطائفية في نزاعات وأغراض لا دخل لها ولا تمت بصلة للطائفية[١].

إن حالة بقية العشائر العراقية المنقسمة بين المذهبين دون أن تتقطع بينها أواصر القرابة والالتزامات التي تفرضها العادات والتقاليد العشائرية كما ذكرنا في بداية الفصل، تشبه إلى حد ما حالة آل فتلة.

أُتُهم، ومازال بعض الشعوبيين المحسوبين على الشيعة يتهمون ياسين الهاشمي (الذي اختارته أو فرضته العشائر الشيعية) بالطائفية، أما ذوي التوجه الشعوبي المحسوبين على السُنَّة يتهمونه بالانفراد بالسلطة وبتهم أخرى.

١- تفاصيل أكثر عن نشاطات جماعة مؤتمر صليخ وتمرداتهم من أجل إيصال الهاشمي إلى السلطة راجع:- حازم المفتي، العراق بين عهدين: ياسين الهاشمي وبكر صدقي، بغداد: مكتبة اليقظة العربية، بلا تاريخ.

- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، مصدر سابق، الجزء الرابع، خاصة الصفحات من ٥٠-١٤٨.

٦: إن النُخب الشيعية الشابة التي بدأت تظهر في أواخر أربعينات وأوائل خمسينات القرن الماضي، توزعت هي الأخرى في ولاءاتها، وبرز منها قيادات كبيرة في التيار القومي العربي، فكان مهدي كبة، وفائق السامرائي السُّني من أبرز الوجوه القومية في العراق، شكلا بالتعاون معًا حزب الاستقلال الممثل للتيار القومي العربي في العراق بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني، وضرب الحركة القومية العربية من قبل الاحتلال البريطاني وحليفها الأقوى نوري السعيد، ولم نسمع عن أي منهما شبهة الطائفية، التي يبدو أنها بدأت تختفي وتنحسر في الجوامع والتكيات[١].

شارك فؤاد الركابي الشيعي مع بقية رفاقه من السُنَّة بالأصل في تشكيل أولى بؤر وخلايا حزب البعث العربي الاشتراكي الأولى، وتولى قيادة فرع الحزب في العراق، وكان أول أمين قطري للحزب، حتى اختلف مع قيادة عفلق بسبب موقف الأخير السلبي من الوحدة بين سوريا ومصر.

من بين ثمانية أعضاء للقيادة القطرية البعثية قادت حركة ٨ شباط ١٩٦٣ التي أسقطت نظام عبد الكريم قاسم، كان هناك خمسة ممن يُحسبون على الشيعة، قادوا تحركهم بمجموعات من الضباط السُّنة، اختلفت القيادة فيما بينها وانقسمت بسبب تصادم الصلاحيات وتداخلها وتنافسهم علي المواقع دون أن يكون للطائفية دور لا في التحرك الذي قادوه ضد قاسم، ولا في خلافاتهم الشخصية، التي استغلها عبد السلام عارف ليقضي على الطرفين ويزيحهم من السلطة.

١- حول تأسيس وأهداف حزب الاستقلال، يمكن مراجعة المصادر التالية:

- عبد الله الجيزاني، حزب الاستقلال العراقي ١٩٤٦-١٩٥٨، دمشق: بلا دار نشر، ١٩٩٤.

- إبراهيم الجبوري، سنوات من تاريخ العراق، النشاط السياسي المشترك لحزبي الاستقلال والوطني الديمقراطي، بغداد: المكتبة العالمية بلا تاريخ.

- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، بيروت: مركز الأبجدية للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص: ٧٦-٨٢.

- عادل غفوري خليل، أحزاب المعارضة العلنية في العراق، ١٩٤٦-١٩٥٤، بغداد: المكتبة العالمية، ١٩٨٤، ص: ٨١-٨٥، كذلك الصفحات١١٢-١٢٩.

شاركت نخبهم الأخرى في مختلف التيارات السياسية الأخرى الشيوعية، أو التيارات القومية العربية، وبرز من بين الوجوه المحسوبة على التيار القومي أسماء شيعية مثل ناجي طالب، أحمد الحبوبي، سلام أحمد، وهاشم علي محسن وغيرهم.

كان هناك حجم كبير من الشيعة التزموا بخط الحزب الشيوعي، الذي كان هو الآخر يجمع في قيادته الشيعي والسني بدون أي حساسيات طائفية، يدون حنا بطاطو في عمله الموسوعي عن العراق ملاحظة مهمة تستحق الذكر والتأمل، استمدها من حركة المقاومة التي قادها الحزب الشيوعي ضد حركة ٨ شباط التي أنهت حكم عبد الكريم قاسم، وهي أن غالبية قيادات الحزب الشيوعي العراقي كانوا من السُنَّة بقاعدة غالبيتها من الشيعة، بينما غالبية القيادات في حزب البعث كانت شيعية، بقاعدة سنية واسعة[1].. ما يعني بطلان ما روج له الشيوعيون من إشاعة الشينات الثلاثة (٣ش) التي تطرقنا لها في أعلاه.

استمر الحال على ما هو عليه من تراجع الطائفية وانحسارها في المساجد والتكايا، دون أن يكون لها من أثر أو امتداد على الشارع والحياة اليومية للعراقيين، شكلت بغداد بوتقة لهذا التعايش، فتزاوج عشرات أو مئات الآلاف من أبناء وبنات الطرفين دون حساسية تذكر أو تحسب حساب للانتماء الطائفي للآخر.

حتى وصل البعث ثانية إلى السلطة بقيادة البكر – صدام، فبدأت أولى خطواتهم في زعزعة موقع مرجعية محسن الحكيم وبقية النخب الشيعية من أساتذة الجامعة، ثم الإعدامات اليومية بالعشرات لمنتسبي حزب الدعوة إلا أن الحالة ظلت محدودة الانتشار ولم تتحول أو تمتد إلى الشارع العراقي، حيث تمكن البعث أن يصور هذه الصدامات ويُلبسها لبوس الصراع بين قوى تقدمية

١- حنا بطاطو، مصدر سابق، الكتاب الثالث، ص:٢٩٨.

ببرنامج علماني، اشتراكي، وأخرى رجعية تريد أن تعيق مسيرته التحررية، إلى أن صحى الناس يومًا على عمليات ذبح جماعي للشيعة في شباط ١٩٧٧، لا لذنب اقترفوه أو نشاط سياسي مارسوه بل فقط لأنهم شيعة، كما سيأتي الحديث عنه في الفصل الخامس.

obeikan.com